

تفسير البحر المحيط

@ 286 @ تدخل على الممكن والممتنع نحو قوله { لَتَنِينَ أَشْرَكَتَ } . . .
 { أَوْ لَمْ } * يَرِ السَّذِينَ كَفَرُوا° أَنْ° * السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ * كَانَتَا
 رَتَقًا° فَفَتَقْنَاهُمَا° وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ° أَفَلَا°
 يُؤْمِنُونَ° * وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ° أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ° وَجَعَلْنَا
 فِيهَا فِجَاجًا° سُبُلًا° لِّلْعَالَمِينَ° يَهْتَدُونَ° * وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا°
 مَحْفُوظًا° وَهُمْ° عَنِ آيَاتِنَا مُعْرِضُونَ° * وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ
 وَالْأَرْضَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ° كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ° * وَمَا جَعَلْنَا
 لِّلشَّارِكِ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ° أَلَّا يَمُوتَ° فَهُمْ° الْخَالِدُونَ° * كُلٌّ نَّفْسِهِ
 ذَائِقَةُ الْعَمَلِ° وَنَزَّلْنَاكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً° وَإِلَيْنَا
 تُرْجَعُونَ° } . . .

هذا استفهام توبيخ لمن ادعى مع الله آلهة ، ودلالة على تنزيهه عن الشريك ، وتوكيد لما
 تقدم من أدلة التوحيد ، ورد على عبدة الأوثان من حيث أن الإله القادر على هذه المخلوقات
 المتصرف فيها التصرف العجيب ، كيف يجوز في العقل أن يعدل عن عبادته إلى عبادة حجر لا
 يضر ولا ينفع والرؤية هنا من رؤية القلب . وقيل : من رؤية البصر وذلك على الاختلاف في
 الرتق والفتق . وقرأ ابن كثير وحמיד وابن محيصن ألم يَرَ بغير واو العطف والجمهور {
 أَوْ لَمْ } بالواو . { كَانَتَا } قال الزجاج : السموات جمع أريد به الواحد ، ولهذا
 قال { كَانَتَا رَتَقًا } لأنه أراد السماء والأرض ، ومنه أن الله يمسك السموات والأرض أن
 تزولا جعل السموات نوعاً والأرضين نوعاً ، فأخبر عن النوعين كما أخبر عن اثنين كما تقول
 : أصلحت بين القوم ومر بنا غنمان أسودان لقطيعي غنم . وقال الحوفي : قال { كَانَتَا
 رَتَقًا } والسموات جمع لأنه أراد الصنفين ، ومنه قول الأسود بن يعفر : % (إن المنية
 والحتوف كلاهما % .

يوفي المحارم يرقبان سوادي .

%) .

لأنه أراد النوعين . وقال أبو البقاء : الضمير يعود على الجنسين . وقال الزمخشري :
 وإنما قال { كَانَتَا } دون كن لأن المراد جماعة { السَّمَاوَاتِ } وجماعة { الْأَرْضِ }
 ونحو قولهم : لقاحان سوداوان إن أراد جماعتان فعل في المضمرة ما فعل في المظهر . وقال
 ابن عطية : وقال { كَانَتَا } من حيث هما نوعان ونحو قول عمرو بن شبيب : % (ألم

يحزنك أن جبال قيس % .

وتغلب قد تباينت انقطاعا .

. %)

قال ابن عباس والحسن وعطاء والضحاك وقتادة : كانتا شيئاً واحداً ففصل الله بينهما بالهواء . وقال كعب : خلق الله السموات والأرض بعضها على بعض ثم خلق ريحاً بوسطها ففتحها بها وجعل السموات سبعاً والأرضين سبعاً . وقال مجاهد والسدي وأبو صالح : كانت السموات والأرض مؤتلفة طبقة واحدة ففتقها فجعلها سبع سموات ، وكذلك الأرضون كانت مرتتفة طبقة واحدة ففتقها وجعلها سبعاً . وقالت فرقة : السموات والأرض رتق بالظلمة وفتقها الله بالضوء . وقالت فرقة : السماء قبل المطر رتق ، والأرض قبل النبات رتق { فَفَتَقْنَا نَافِثَاتِهَا } بالمطر والنبات كما قال { وَالسَّمَاءَ ذَاتِ الرَّجْعِ * وَالْأَرْضَ ذَاتِ الصَّدْعِ } قال ابن عطية : وهذا قول حسن يجمع العبرة وتعدد النعمة والحجة للمحسوس بين ، ويناسب قوله { وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ } أي من الماء الذي أوجده الفتق انتهى . .

وعلى هذين القولين تكون الرؤية من البصر وعلى ما قبلهما من رؤية القلب ، وجاء تقريرهم بذلك لأنه وارد في القرآن الذي هو معجزة في نفسه فقام مقام المرئي المشاهد ، ولأن تلاصق الأرض والسماء وتباينهما كلاهما جائز في العقل فلا بد للتباين دون التلاصق من مخصص ، وهو الله سبحانه وقرأ الجمهور { رَتَّقَا } بسكون التاء وهو مصدر يوصف به كزور